العرب
الثلاثاء 2020/11/24
السنة 43 العدد 11891

ماذا تحقق من طموحات للمنتفضين العرب بعد عقد من الثورة

«الربيع العربي» تحول إلى «الشتاء العربي» مع صعود التطرف الديني واندلاع الحروب والنزاعات

عندما اندلعت الانتفاضات الشعبية في المنطقة العربية قبل عشر سنوات رأى المحللون حينها أنه وُلد من رحمها نموذج جديد للشرق الأوسط مستند إلى إدراك جماعي بأن الطغاة لم يعودوا في أفضل أحوالهم، وأن التغيير يمكن أن يحدث من الداخل، وليس فقط كنتيجة لتغير في الخارطة الجيوسياسية العالمية، ولكن ذلك المشهد خلف وراءه دولا منهارة ومواطنين لاجئين وتحول "الربيع العربي" إلى ساحة حروب مفتوحة لا أحد يعلم متى ستنتهي.

الاستثناء في منطقة عصفت الحروب بثوراتها

بيروت – أثارت انتفاضات شعبية في المنطقة العربية قبل عقد من الزمن أحلاما بالحرية، قبل أن تتدحرج كرة الثلج هذه في معظم الدول التي انتقلت إليها وتحطمّ آمالا كثيرة، لكن هذا الحدث التاريخي غيّر وجه المنطقة برمّتها.

وشهدت المنطقة انهيارا سريعا لأنظمة بدا أن الخلاص منها مستحيل، قبل أن يعلن تنظيم داعش المتطرف إقامة "دولة الخلافة" على أراض واسعة من سوريا والعراق، وما لبث أن أفل نجمه بعد سنوات أثار خلالها الرعب في العالم.

في المحصلة، أدى ما يسمى بـ"الربيع العربي"، الذي تحول إلى "الشتاء العربي"، إلى نتائج متفاوتة، فالتظاهرات الشعبية الحاشدة في تونس وليبيا ومصر واليمن وسوريا تبعتها إصلاحات مخيبة للآمال في أحسن الأحوال، أو ردود فعل قمعية من أنظمة دكتاتورية، ولكن أيضا نزاعات دامية.

أهداف سويف

من المبكر تحديد إرث ثورات مازالت في طور التنفيذ

ومع ذلك، فإن روحية الثورة لم تمت بعد، وهو ما تجلى بعد ثماني سنوات في اندلاع موجة ثانية من الانتفاضات الشعبية في كل من السودان والجزائر والعراق ولبنان.

ولكن مع كل ما حصل، يطرح محللون وباحثون سيلا من التساؤلات الممزوجة بالانطباعات المختلفة حول المستقبل الذي كان يتطلع إليه سكان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، خاصة مع النكسات التي تعرضت لها الشعوب في دخول عصر لا يحكمهم أحد بقبضة من حديد.

بين الحلم والواقع

ظهر حد فاصل خلال السنوات العشر الماضية بين ما هو حلم قابل للتحقق وبين الواقع الراهن، ولوهلة، بدا وكأنّه لا يمكن وقف انهيار الأنظمة الدكتاتورية في المنطقة في 2011، كما بدا قبل ذلك أنّه لا يمكن المسّ بقادتها، بيد أن الأمور لم تسر على النحو الأمثل.

ورغم ذلك، تعتبر لينا منذر، وهي مؤلفة ومترجمة لبنانية لعائلتها جذور سورية ومصرية، أنّ شيئا ما "في نسيج الواقع نفسه" تغيّر منذ اندلاع الثورات، ولا ترى إن "كان هناك ما هو أكثر إثارة للمشاعر أو نبلا من شعب يطالب بصوت واحد بحياة كريمة".

وتضيف في تصريحات لوكالة الصحافة الفرنسية "يثبت ذلك أنّ أمرا مماثلا ممكن، وأنه يمكن للناس أن يثوروا ضد أسوأ الطغاة، وأن هناك ما يكفي من الشجاعة لدى الناس الذين يقفون ويعملون معا لمواجهة جيوش بأكملها".

وشهدت خمس دول عربية قبل عقد من الزمن انتفاضات شعبية متتالية انطلقت شراراتها في تونس ليسقط في البداية الرئيس الراحل زين العابدين بن علي من الحكم، ثم تلته انتفاضة في مصر لتطيح بالرئيس الأسبق محمد حسني مبارك، ليأتي تحرك ثالث في ليبيا دفع ثمنه الزعيم معمر القذافي الذي قتل على يد أحد الثوار.

وفي سوريا، لم يأت دور بشار الأسد قط، فقد نجا من العاصفة وبات "قطعة الدومينو" الوحيدة التي لم تسقط، فقد تحولت الاحتجاجات في بلاده إلى حرب مدمرة، كما حصل في اليمن، والتي تسببت في موت الرئيس السابق علي عبدالله صالح بعد سنوات من مهادنة جماعة الحوثي التي استولت على العاصمة صنعاء.

وتعد البحرين البلد الخليجي الوحيد الذي شهد احتجاجات شعبية، سرعان ما تمت السيطرة عليها بدعم من السعودية، التي استبقت انتقال العدوى إلى أرضها باتخاذ حزمة من التدابير.

وتحوّل الأمل الذي عبّرت عنه المحللة السياسية والروائية المصرية أهداف سويف في مقال نشر على أعمدة صحيفة "الغارديان" البريطانية خلال فبراير 2011 إلى ما يشبه السراب اليوم.

ومع ذلك، تعتبر سويف أنه من المبكر تحديد إرث تلك الثورات التي مازالت في طور التنفيذ، وترى أن الظروف التي عاشت الشعوب في ظلها منذ منتصف سبعينات القرن الماضي، أدت إلى الثورة وكان أمرا حتميا ولا يزال كذلك.

وترفض سويف، على غرار آخرين، ربط صعود الإسلام الراديكالي بالثورات، بل ترى فيه "ثورات مضادة" غذّت كل أنواع الحرمان والفقر التي يقتات عليها الجهاديون.

كما ترفض مقولة إن مصر عادت إلى ما قبل 2011، بل تعتبر أن الناس اليوم باتوا أكثر "وعيا ويقظة" لما يدور حولهم. وتوضح أن هناك اليوم "ثورة اجتماعية أحرزت تقدما كبيرا في قضايا عدة، مثل حقوق المرأة وحقوق المثليين"، مشيرة في الوقت ذاته إلى أنّ الطريق لا يزال طويلا أمامهم.

وبعد سنوات من اندلاع الموجة الأولى، خرجت العام الماضي تظاهرات حاشدة في السودان والجزائر والعراق ولبنان. رفعت الاحتجاجات بعض الشعارات ذاتها التي رُفعت قبل عشر سنوات وبينها "الشعب يريد إسقاط النظام"، ما أعاد إلى الذاكرة الثورات الأولى وأكد أن تأثيرها لا يزال قائما بين الشباب العربي.

ويقول الأستاذ في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية التابعة لجامعة لندن أرشين أديب مقدم إن المطالب الرئيسية للتظاهرات ستعود وتخرج إلى العلن في أقرب فرصة وكأنها تسونامي سياسي.

ويرى صاحب كتاب "الثورات العربية والثورة الإيرانية: القوة والمقاومة اليوم"، أن شعوب المنطقة وضعت معيارا جديدا للسياسة والحوكمة التي تطالب بها. ومنذ ذلك الحين، تقاس كل السياسات بحسب تلك المطالب، ويقول إن أي دولة لا تدرك هذه الحقيقة الجديدة يكون مصيرها الدخول في مواجهة.

ويظهر التاريخ أن الثورات تحتاج عادة إلى سنوات طويلة، غالبا ما تكون صعبة، لبلوغ نتائجها، لكن ليس من السهل العودة عن التغييرات التي تطرأ على أشخاص شاركوا في تلك الثورات أو كانوا شهودا عليها.

وتقرّ لينا منذر أنه بغض النظر عما ينتظرها، فإن الطريقة التي تنظر بها الشعوب إلى قادتها أو إلى العالم أو حتى إلى نفسها، قد تغيرت إلى الأبد.

وتقول "عشنا فترة طويلة في عالم حاول أن يغرس فينا فكرة أن الفكر المجتمعي مشكوك بأمره، بل أن الفردية هي مرادف للحرية، لكن هذا ليس صحيحا. الكرامة هي مرادف الحرية".

الشتاء العربي

تسببت سياسات إدارة الرئيس السابق باراك أوباما تحت عناوين دعم الانتقال الديمقراطي وإعطاء الناس مساحة أكبر للحرية والتداول السلمي على السلطة إلى فوضى عارمة في أرجاء المنطقة العربية، ومع وصول الرئيس الأميركي المنتخب جو بايدن للبيت الأبيض يبدو أن دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ستعيش على وقع تحولات قد لا تكون إيجابية.

وقد دعم أوباما اندلاع الثورات العربية وسارع إلى إعلان دعمه للمتظاهرين الذين اجتاحوا الشوارع، إلا أن هذا الدعم لم يتحول إلى تدخل مباشر لصالح الاحتجاجات المنادية بالتغيير، ولكن كان تدخله العسكري في ليبيا مثيرا للجدل.

ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم يبدو أن ثمار "الربيع العربي" المنتظرة لم تزهر كما توقعت الشعوب، ففي العام الماضي، عنون الكاتب الأميركي نوح فيلدمان كتابا حول الموضوع "الشتاء العربي"، وهو مصطلح ظهر مع عسكرة الثورات وصعود التطرف الديني واندلاع الحروب والنزاعات.

وعلى غلاف الكتاب الخلفي، كتب الأكاديمي البارز مايكل إغناتيف أن المؤلف يسلط الضوء على "أحد أهم الأحداث في عصرنا: الفشل المأسوي للربيع العربي".

وباستثناء تونس، لم تملأ أي إصلاحات ديمقراطية الفراغ الذي خلّفه سقوط الأنظمة، وعلا صوت العنف، ففي 2012، انتخب المصريون الإسلامي محمد مرسي رئيسا، لكن أداءه وبرنامجه أثارا معارضة شرسة، فتجددت الاحتجاجات، ما مهّد إلى عزله في يونيو 2013.

ويعتبر فريدمان في كتابه أنه "بالمقارنة مع الفشل في مصر والكارثة في سوريا، تبدو تونس وكأنها العلامة الفارقة في الظاهرة الإقليمية".

ورغم أن الدولة الصغيرة في شمال أفريقيا بقيت أفضل حالا من الدول الأخرى، إلا أنّ مكاسب ثورة 2010 لا تزال غير ظاهرة.

نوح فيلدمان

الربيع العربي هدفه إبراز أشخاص يصنعون تاريخهم

ويقول فيلدمان في كتابه "كان الهدف السياسي الأساسي للربيع العربي إبراز أشخاص يتكلمون العربية، ويتصرفون بشكل مستقل تماما في صناعة تاريخهم والتاريخ بشكل عام".

لكن بعد عقد على اندلاعها، ينظر بالأحرى إلى ثورات الربيع العربي على أنها فشلت في تحقيق مرادها، فقد دُمّرت سوريا، ووقعت فيها أسوأ كارثة نزوح إنسانية منذ الحرب العالمية الثانية.

وفي اليمن يموت الأطفال من الجوع كما تحولت ليبيا إلى دولة اللاقانون وساحة لصراعات الميليشيات وداعميها الدوليين، ولم يبق للأصوات المطالبة بالديمقراطية في هذه الدول أي صدى.

فوق ركام دولة منهارة.. بشار الأسد باق وإن كره المعارضون

شكل بشار الأسد بحفاظه على موقعه في هرم النظام السوري الاستثناء الوحيد في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بعد أن أطاحت ثورات "الربيع العربي" برؤساء حكموا بلدانهم بقبضة من حديد، حيث صمد في وجه العزلة والحرب والنقمة، ورغم الدمار والموت والتشريد التي ضربت كلها بلده ولا تزال، فلا يوجد ما يشير إلى أنه سيسقط قريبا.

دمشق – يؤكد المراقبون أن بشار الأسد، الذي تنبأ كثيرون بأنه سيسقط تحت ضغط الشارع بعد أسابيع من بدء الانتفاضة الشعبية ضده في مارس 2011، استفاد من تقاطع عوامل داخلية أبرزها تحكّمه في القوات الأمنية والعسكرية، وخارجية على رأسها تلكؤ الغرب في استخدام القوة ضده مقابل دعم عسكري حاسم من إيران ثم روسيا، ليبقى.

كريم بقرادوني

الأسد عرف كيف يستثمر عامل الوقت لصالحه حتى يبقى

ويضاف إلى ذلك، ما اعتبره البعض من الباحثين، الصبر واستثمار عامل الوقت المشهود لعائلة الأسد بحسن توظيفهما، والتي تحكم سوريا منذ بداية سبعينات القرن الماضي.

يقول السياسي اللبناني المخضرم كريم بقرادوني لوكالة الصحافة الفرنسية إنه "بعدما طالب العالم كله برحيله قبل سنوات وظنّ أنه سيسقط، يريد اليوم أن يجد الحل معه. لقد عرف الأسد كيف يستثمر عامل الوقت".

ومنذ انطلاق الاحتجاجات التي سرعان ما تحولت إلى نزاع مدمر فاقمه تصاعد نفوذ التنظيمات الجهادية وتدخل أطراف خارجية عدّة ساهمت في تعقيد المشهد، لم يتوان الأسد في أي تصريح عن إبداء ثقته الكبيرة في القدرة على الانتصار حتى في أكثر لحظاته ضعفا.

ويضيف بقرادوني، الذي لعب لوقت طويل دور الوسيط بين النظام السوري وأطراف لبنانية خلال الأزمات، التي شهدها البلدان، قائلا "لم يتراجع الأسد أي خطوة إلى الوراء، لقد تمسك بكل مواقفه من دون أي تعديل وتمكّن من أن يسترجع بالقوة العسكرية معظم الأراضي السورية".

وأثبت الجيش السوري، وفق بقرادوني، "أنه جيش عقائدي ونظامي تمكن من الاستمرار وحماية النظام في أسوأ الأوضاع ولم ينقلب عليه كما في دول أخرى، وهذا ما جعل الأسد نموذجا استثنائيا في ما يُعرف بثورات الربيع العربي".

وبقي الجيش الذي يشكل أبرز أسلحة الأنظمة الدكتاتورية، متماسكا وموالیا لنظام بشار الأسد، رغم انشقاق عشرات الآلاف من العسكريين عنه بعد اندلاع النزاع.

ويختصر توما بييريه من معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي العوامل الداخلية، التي ساهمت في بقاء الأسد في السلطة بعنوان واحد "استمرار ولاء قيادة الجيش التي تعززت خلال عقود بأقارب الأسد وأتباعه" من الطائفة العلوية التي ينتمي إليها.

ويؤكد بييريه أن هؤلاء شكلوا "على الأرجح أكثر من ثمانين في المئة من الضباط في العام 2011 وشغلوا كل منصب مؤثر عمليا" داخل الجيش.

ويرى باحث سوري في دمشق تحفظ عن الكشف عن اسمه لوكالة الصحافة الفرنسية، أنه "لا يمكن إنكار دور شخصية الأسد في بقائه، وما يعرف عنه من إصرار وصرامة، فقد تمكّن من حصر القرارات كافة بيده وجعل الجيش معه بشكل كامل".

ولم تفرز بنية النظام شخصيات قيادية يمكنها أن تلعب دورا بارزا في مواجهته، لا بل قطعت الطريق على أيّ شخصية حاولت أن تبني حيّزا لها في مستقبل البلاد.

وراهن الأسد على تركيبة المجتمع المعقدة مع وجود انقسام عرقي بين عرب وأكراد، وطائفي بين سنّة وعلويين وأقليات، أبرزها المسيحية، رأت فيه حاميا لها خصوصا مع تصاعد دور التنظيمات الإسلامية والجهادية.

واستفاد الأسد من خوف الناس من الفوضى ومن خوف بيئته (العلوية) على وجودها في حال سقوطه، ما جعلها تستميت في الدفاع عنه دفاعا عن وجودها. كما استفاد من غياب قوى سياسية فاعلة وفقدان الأمل من دور المعارضة.

وبينما كانت قوات الأسد تخسر على الأرض، تشكلت في فبراير 2012 مجموعة "أصدقاء سوريا" التي ضمّت دولا غربية وعربية داعمة للمعارضة السورية ثمّ اعترفت أكثر من مئة دولة على الأقل بالائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية كممثل شرعي وحيد للشعب السوري.

وبدا الأسد في تلك الفترة رئيسا معزولا مع تصاعد المطالب بتنحيه، في وقت جمّدت جامعة الدول العربية عضوية سوريا فيها، وفرضت دول غربية عقوبات على النظام بسبب ممارسات القمع، وأضحى الأسد حينها على وشك السقوط، إلا أن خصومه لم يتمكنوا من تشكيل جبهة موحدة، لا في الداخل ولا في الخارج.

ولاء الجيش أبقاه على قيد الحياة

ومع عسكرة النزاع، تعدّدت الفصائل المقاتلة التي كانت تتلقى دعما من جهات ودول مختلفة لها أجندات خاصة، ومع ظهور تنظيم الدولة الإسلامية وتحكمه بمساحات واسعة من البلاد، تبدّد مطلب الحرية والديمقراطية وراء الرعب.

وبشكل غير مباشر، قدم الأسد نفسه على أنّه يخوض حربا ضد "الإرهاب"، بينما لم تفرز المعارضة السياسية قيادة بديلة تشكل محاورا يتمتع بالمصداقية أمام المجتمع الدولي.

وفيما كانت الفصائل المعارضة تطالب حلفاءها بسلاح ودعم عسكري، على غرار تدخل حلف شمال الأطلسي الجوي الذي ساعد المعارضة المسلحة الليبية على النيل من نظام القذافي، كان الغرب مرعوبا من تكرار تجربة ليبيا حيث بدأت الفوضى تتمدد بسرعة.

ومع استقطاب التنظيم المتشدد لآلاف المقاتلين الأجانب إلى سوريا والعراق المجاور بدءا من العام 2014، وتنفيذه هجمات دامية في دول عدة، انصبّ تركيز المجتمع الدولي بقيادة واشنطن على دعم الفصائل الكردية وحلفائها في مواجهة الجهاديين عوضا عن دعم خصوم الأسد.